رثاء الصنوبري لابنتيه (تحليل أدبي)

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

خلاصة—**هذا الموضوع يتناول تحليلا أدبيا لمقاطع من رثاء الصنوبري لابنته التي ماتت صغيرة.**

الكلمات المفتاحية: ***الصنوبري، البنت، الابنة، الرثاء، البكاء، حلب، الشام.***

I. *المقدمة*

II. يخطف الموت من الصنوبري ابنتيه فيبكيهما بكاء مرًّا يفصح عن مدى تعلقه بهما وحبه لهما، ويفصح لنا عن رقة خاصة اتسم بها الصنوبري الذي كان يحس ويشعر بكل ما يحيط به من مفردات الحياة، ولا سيما الطبيعة الحية.

III. موضوع المقالة

أكثر رثاء الصنوبري - فيما وصلنا من ديوانه - هو من نصيب ابنته ليلى التي دفنت بباب قنسرين، وقد ذكر اسمها صراحة أو بما يدل عليها في ثلاث مقطوعات وست قصائد(١)، أما باقي شعره في رثاء بنتيه، فلا يتضح في أي البنتين قيل، هل هي ليلى أم أختها الأخرى، أم هما معًا؟ وهو يتمثل في قصيدة من عشرين بيتًا، مطلعها:

يا فراشًا من المَدَرْ ... ووِسَادًا مِنَ الحَجَرْ(٢)

ويتمثل كذلك في عشر مقطوعات أقلها بيت، وأكثرها خمسة أبيات(٣).
ويدل ذلك - في رأيي - على أن تعلقه بابنته ليلى كان أكثر من تعلقه بابنته الأخرى، ربما لأنها كبرت وتزوجت(٤) فتوطدت علاقته بها أكثر من أختها التي ربما ماتت صغيرة. وفي إحدى القصائد التي رثى بها ليلى ذكر قبر ابنته هذه فقال:

لنا في الرَّقَّتَينِ مغيضُ حُزْنٍ ... وفي حَلَبَ المَضيضُ على المَضِيضِ(٥)

وقد ماتت هذه الابنة في الرقة بالعراق في إحدى رحلاته إليها، أما ليلى فماتت بحلب، ودفنت في مكان يدعى باب قنسرين، وقد ذكره الصنوبري أكثر من مرة في رثائه لها(٦). ومما رثاها به هذه القصيدة التي تمتلئ بالعاطفة الصادقة الجياشة واللوعة المحرقة(٧)؛ يقول الصنوبري:

أَقَصِرْ فَمَا تَمْلِكُ إِقْصَارِي ... صَبَّرتَ مَنْ لَيسَ بِصَبَّارِ

مالي عَنِ الأوزَارِ مَنْدُوحَةٌ ... إِذْ كَانَتِ الأحْزَانُ أوزَارِي

لا دَرَّ دَرُّ العينِ إِنْ سَامَحَتْ ... عَينِي بِدَمْعٍ غَيرِ مِدْرَارِ(٨)

يخاطب في البداية مجهولاً لا نعرفه، أن يقصر، لكنه لم يذكر لنا عن أي شيء يقصر؟! ويتضح من السياق أن هذا المجهول والذي ربما كان صديقا له – على طريقة مخاطبة الصاحب أو الصاحبين في الشعر الجاهلي - ينصح الشاعر بأن يكف عن الحزن والحسرة، وينصحه بالصبر، لكن الشاعر يعلمه أنه لا يستطيع إثناءه عن هذا الحزن، فقد وقع ظنه في غير محله؛ لأن الأحزان متأصلة فيه، وكيف لا تتأصل وقد أصيب برزء كبير.

---

(١)ديوان الصنوبري - ص ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٤٢، ٢٦٣، ٣١١.
(٢)ديوان الصنوبري - ص١٠٢.
(٣)ديوان الصنوبري - ص٢٦٥، ٣٤٣، ٤٤٣، ٥١٤، ٥١٥.
(٤)مما يدعم أن ابنته ليلى ماتت بعدما كبرت وتزوجت، ما ورد في ديوان الصنوبري من هجاء يصل إلى خمسة وخمسين بيتا يسوم به صهره المدعو بابن الجنيد، ومنه:

ألا يا ابن الجنيد اسمع ... وما أنت بذي سمع
ولا أنت بذي ضر ... ولا أنت بذي نفع
على التفريق إملا ... ك هذا لا على الجمع

ديوان الصنوبري - ص ٣٤٦.

(٤)ديوان الصنوبري - ص ٢٦٣. والمغيض: المكان الذي يغيض فيه الماء، والأرجح مضيض بمعنى مؤلم (ديوان الصنوبري- ص ٢٦٣، تعليق المحقق) وقد ذكر الدكتور شوقي ضيف هذا البيت بلفظ مضيض (العصر العباسي الثاني، ص ٣٥٧).
(٦)من الأبيات التي ذكر فيها باب قنسرين قوله:

يا بابَ قِنّسرينَ لا تخلُ من ... سحائبٍ عُونٍ وأبكارِ

وكذلك قوله:

فَقَعْ في بابِ قِنّسرينَ فانظرْ ... إلى جَزَعِ النَّساءِ على القُبُورِ

(٧)عن هذه القصيدة يقول الدكتور محمد زغلول سلام: "وهذه المرثية من أصدق المراثي التي تنبئ عن لوعة والد لفقد عزيزته الوحيدة، ولم يتكلف فيها الشاعر ... هذه النجوى الحزينة تثير الشجن في نفس كل من يطالعها، وفي اعتقادنا أنها تنفرد بين مراثي الأبناء والإخوة عما عرفناه في تراثنا الشعري، تختلف عن مراثي الخنساء ومتمم، ومراثي أبي تمام وابن الرومي، بل ومن بعدهم عن مراثي التهامي التي اشتهرت ولم تشتهر هذه" الأدب في عصر العباسيين "القرن الرابع" – د.محمد زغلول سلام – ط١ (منشأة المعارف – الإسكندرية – سنة ١٩٩٩م) ص ١١٧، ١١٨.
(٨)ديوان الصنوبري - ص ٩٩، ١٠٠.

ويعتصر الألم قلب الشاعر، ويحطم الفراق ذاته تحطيما رهيبا لا يطيقه فيحمّل الأحداث والأيام مسئولية ما ألم به، حيث ألقته ما بين أنياب وأظفار، وألبست جسمه ثياب الضنا، فأضر به الثكل، وأمرَّ عيشه:

أَلْقَتْنِيَ الأَحْدَاثُ مِنْ كَيدِهَا ما بَينَ أَنْيَابٍ وأَظْفَارِ

وأَلْبَسَتْ جِسْمِي ثِيَابَ الضَّنَا فالجِسْمُ مِنْ غَيرِ الضَّنَا عَارِ

أَضَرَّ بِي ثُكْلُكِ لَيلَى وفِي إِضْرَارِهِ بِي كُلُّ إِضْرَارِ

يا يومَ ثُكْلٍ لم أَذُقْ مِثْلَهُ أَمَرَّ عَيشِي أَيَّ إِمْرَارِ

أَمَا على يَومِكِ مِنْ نَاصِرٍ أم غابَ عَنْ يومِكِ أَنْصَارِي